ومما يعطينا صورة فريدة عن تفكير الشخص ونفسيته سلوكه العام في الحياة. إن السلوك ـ عادة ـ وليد التفكير، وكلما كان هذا السلوك مختلفاً عن سلوك الآخرين ازددنا شعوراً بوجود الشخصية النموذجية. إن «سلفان» الموظف الذي تتبعه «جورج ديهاميل» في عدة روايات له يقوم بمغامرة عجيبة وغامضة؛ إذ بينما كان رئيسه منهمكاً في النظر في بعض الأوراق حدثته نفسه بأن يلمس شحمة أذنه الحمراء، وأخذ يضع الخطط لتحقيق رغبته المضحكة، وحين واتته الفرصة والشجاعة نفذ ما عزم عليه، فانزعج ذلك الرئيس وطرده شر طردة[٧٢]. إن هذا السلوك الشاذ من «سلفان» يجسد بدائية نفسيته بطريقة أخاذة.

ولعله من نافلة القول أن نؤكد أن الفكرة المجردة يجب أن تخضع خضوعاً تاماً للشخصية، وأن تصبح محركة لهذه الشخصية ومولدة للمعاناة والصراع الحاد في داخلها. إن «إيفان كاليايف» في مسرحية «العادلون»[٧٣] لألبير كامي يعيش أفكاره عن الحرية والعدالة بصدق، فيندفع إلى الاغتيال ويرضى بالسجن والموت من أجل هذه الأفكار.

جـ) البعد الاجتماعي: إذا كانت الشخصية الأدبية محددة الأبعاد الجسمية والفكرية والنفسية، فإن هذا وحده لا يجعل منها نموذجاً نابضاً بالحياة، فلا بد من تحديد الأبعاد الاجتماعية وتجسيد ملامح العصر والظروف المحلية في تلك الشخصية. إن بالزاك لا يكتفي برسم الملامح الفردية للشخصية، بل يعكس فيها بقوة كل العناصر الشائعة في طبقتها الفاسدة، وبهذا يضمن بالزاك تلازم البعيد الفردي مع البعد الاجتماعي، فيصبح البعدان متلاحمين «لا ينفصمان في أبطاله، لأنهما كالنار والحرارة التي تشع منهما»[٧٤]، على حد تعبير الدكتور صلاح فضل، وهذا ما يبدو لنا بكل وضوح عندما نتأمل شخصية العجوز «غرانده» أو «شارل غرانده»، أو ابنتي الأب «غوريو». وما يقال في شخصيات «بالزاك» يقال أيضاً في شخصيات «دوستويفسكي» من مثل «راسكولنيكوف» و«إيفان» و«ديمتري».

ولعل أبرز ما يميز النمذجة في الواقعية النقدية عن النمذجة في الكلاسيكية